ابن السكير

بقلم: راجا جوبالاتشاري

سأله المدرس: «ما اسمك؟».

فأجابه الصبي: «جايارام».

كان منظر الصبي يدعو إلى الشفقة.. جسمه ضامر نحيل، وعيناه غائرتان في محجريهما، والقميص الذي يرتديه يبدوكأنه يخص شخصاً سواه، أكبر منه، وقطعة القماش التي يلف بها رأسه ذات رقع كثيرة، بالية واهية النسيج.. أما رأسه ذاته فقد خلا تماماً من الشعر، وبدا فيه كثير من البقع الجلدية، منها القديم، ومنها الحديث..

وعاد المدرس يسأل:

– وما عمرك يا غلام؟.

وأجابه الصبي:

– تسعة أعوام يا سيدي.

فانفجر جميع الصبية الذين في الفصل ضاحكين. فإنه من المضحك في عرفهم أن تكون سن الطالب الذي يلتحق بالمدرسة في أول مرحلة من التعليم تسع سنوات.

وصرخ المدرس فيهم قائلاً:

– سكوت!

ووضع التلاميذ أيديهم على شفاههم، ونظر كل منهم نحو الآخر وهم يغمزون بأعينهم غمزات ذات معنى.

وسأله المدرس:

– ولماذا لم تلتحق بمدرسة حتى الآن؟.

وأطرق الصبي، ولم يجب!.

وأعاد المدرس عليه السؤال:

– لماذا؟.

فأجاب الغلام:

– لم يكن هناك أحد يساعد أمي في البيت، لقد كنت أرعى طفلها..

وعاد الصبية يضحكون ضحكاً جهدوا أن يكتموه.

وسأله المدرس:

– وما اسم والدك؟.

وقبل أن يتمكن الصبي من الإجابة، وقف أحد الذين في الفصل وقال:

– إنه يا سيدي ابن «صبان».. السكير.

وفي هذه المرة انفجر الطلبة بالضحك بصوت عال، وأطرق الصبي نحو الأرض.

وانتصف النهار، وأعلن جرس المدرسة حلول ساعة الغداء، وخرج التلاميذ قفزاً وعدوا.. وتجمع عشرة منهم حول «جايارام» وهم في طريقهم إلى الخارج..

ومد أحدهم يده نحو رأسه وقال:

– دعني أرى قبعتك.. الرشيقة.

وهم بنزعها عن رأسه.

وقال آخر محذراً:

– لا تمسها... وإلا اتسخت يداك.

وقال ثالث:

– إنها مصنوعة من الخرق التي التقطت من صناديق القمامة وخاطتها الأم لوليدها الفالح!.

وانبرى آخر يقول:

– أسرع إلى البيت لتهديد الطفل!.

وقال عفريت صغير:

– قميص من هذا الذي ترتديه؟!.

وقال آخر:

– كم كأساً من الخمر احتساها والدك أمس؟.

وسد أحد الصبية أنفه بيده وصاح:

– أف!.. إن الفتى تنبعث منه رائحة نتنة.. لاشك أنه هو الآخر.. سكران!

وقال آخر ساخراً:

– يبدو أن الرجل الذي وجد أمس متردياً في الحفرة ليس إلا والدك.

وتجمع الصبية.. وهم يتصايحون هازئين: «السكير.. السكير.. السكير ابن السكير.. السكران ابن السكران، الصبان» وجعلوا يدورون حوله وهم يصخبون صخباً شديداً.

وتساءل بعضهم: «هل نحن ملزمون بالجلوس معه، في فصل واحد؟..».

أما «جاريارام» فكان يتعذب. ولم يقو على احتمال الضحكات الساخرة والنكات المقذعة، ولكنه مع ذلك حبس الدموع التي كادت تطقر من عينيه.

ولم ينطق بشيء، لم ينبس بكلمة.. وتحامل على نفسه ومضى لا يلوى على شيء.. مضى مسرعًا إلى خارج المدرسة.. ولكنهم تبعوه، وأخذوا يعدون خلفه.. صاروا في الشارع، أطلق الصبي فجأة ساقيه للريح، وانطلق كالسهم، وصياح الشياطين الصغار يلاحقه ويصم أذنيه.. ومال الفتى نحو أحد الأزقة، واختفى.. فجأة!.

وفي المنزل، دفن رأسه في حجر أمه، وانفجر بالبكاء، وهو ينشج نشيجاً ملؤه الحرقة والإحساس بالهوان!.

وقالت الأم وهي تضمه في حنان، وترتب على ظهره، وتقبل جبينه:

– لماذا تبكي يا صغيري؟ هل رفضوا إلحاقك بالمدرسة؟.

ولم تسمع الأم جواباً، وكلما أعادت أسئلتها، أخذته الحمية والإحساس بالهوان، وعلا بكاؤه!.

***

وبعد فترة الغداء، دق ناقوس المدرسة، وتجمع الصبية مرة أخرى في فصلهم...

وعندما دخل المدرس إلى الفصل ولم يجد الصبي، قال:

– أين الصبي الجديد؟.

وأجاب أحدهم:

_ لقد ذهب يا سيدي، ولن يعود!

– لماذا؟.

– لقد سخر منه الجميع، وهزئوا به، فذهب المسكين وهو ينتحب!.

– أيها الصغار.. إن ما فعلتموه بصاحبكم لهو عين الخطأ!.

وأطرق الأولاد خجلين..

وسأل المدرس:

– ومن منكم يعرف منزله؟

ووقف كثيرون، وكل منهم يجيب:

– أنا..

– ومن يستطيع أن يذهب إليه، ويخاطبه برفق، ويأتي به ثانية؟.

واعترض أحدهم قائلاً:

– ولكن يا سيدي.. سيتعرض لنا والده بالإيذاء والضرب..

أما الباقون فقد أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر، في صمت.. وأخيراً وقف طفل لطيف، وقال:

– سأذهب أنا.. وسآتي به..

– جميل يا «سندرام».. اذهب، اذهب إليه، واشرح المسألة لأمه، وعد به إلى هنا.

***

كان«صبانايدو» من مدمني الخمر العتاة.. حتى كانوا يطلقون عليه اسم «صبا السكير» أو اسم «صبانايدو ذو الكأس». ولم يكن والده فقيراً.. وماتت أمه وهو بعد طفل في مهده، فعنى به والده، وعندما بلغ سن السادسة عشرة، اختلط بأصدقاء السوء، وتطبع بأخلاقهم الفاسدة.. وفي البداية كان الأب مهتماً بأمر ابنه، وصار ينصحه ويحذره من العواقب، ولكن بلا جدوى.

وإذ أصبح في الثانية والعشرين من عمره، عمد إلى تزويجه وهو يؤمل أن يصلح الزواج من أخلاقه، ولكن النتيجة كانت عكس ما توقعه، وما أمله.. فهو لم يقلع عن عاداته، وأدمن شرب الخمر، وسار في طريق الشر.. ومات والد «صبا نايدو» محزوناً، وما أن طويت صفحته حتى وجدها إخوان السوء فرصة لإفساد ما بقي من أخلاقه ونزعاته الخيرة، إن

كانت له مثل هذه النزعات!. وإذ تكاثرت عليه الديون، فقد كل ما عنده. وأصبح من العسير عليه أن يحصل حتى على قوته..

ولما كانت إجراءات مقاضاته بسبب ديونه قد أكسبته بعض الخبرة في شئون المحاكم، فقد استطاع أن يجعل من نفسه «كاتب عرائض».. وهو ما يطلق عليه اسم «الكاتب العمومي». وكان هذا العمل يدر عليه نحو روبية في اليوم، أي حوالي سبعة قروش ونصف القرش. وكان ينفق ثلثي هذه الروبية في تعاطي الخمر، ويعطي الباقي لزوجته، وأحياناً لم يكن يعطيها حتى هذه الدريهمات.. كان يحضر إلى البيت ثملاً مخموراً.. ويوسعها ضرباً مبرحاً.. وفي بعض الأحيان، كان يلقي بها خارج البيت.. إلى الشارع، ويوصد الباب دونها!.

وجاء يوم أصبح فيه البيت الذي يقطنه من نصيب دائنيه. وهو في غمرة سكره استشاط غضباً، وهجم على محضر المحكمة وهو يستل مدية في يده. وقبض عليه رجال البوليس، وحوكم. وحكم عليه بالسجن ستة أشهر.. وعانت عائلته من قسوة الجوع والألم والمسبغة. وفي الوقت الذي كان فيه «صبا نايدو» يقضي مدة سجنه، كانت الزوجة تقيم مع طفليها في نفس البيت، بوصفها مستأجرة من الدائن.. ولكن حتى هذا لم يدم إلا بعض الوقت، إذ اضطرها الرجل إلى إخلاء بيته، وذهبت لتقيم في جانب من شرفة منزل يملكه بعض ذوي قرباها..

ولما أطلق سراح «نايدو»، عاد إلى دائه القديم.. وانكب على الشراب يمعن في إدمانه. وزادت بعض الشيء خبرته «بكاره» الأول

«كتابة العرضحالات».. فكان يحصل في اليوم على روبيةكاملة، وأحياناً روبية ونصف روبية. ولكنه صار ينفق كل ما يحصل عليه، في الحانة.. وكثيراً ماكان ينطرح في عرض الطريق طول الليل وهو فاقد الشعور.. فكان لا يستطيع أن يزاول مهنته في اليوم التالي، ويعضه الجوع بنابه، فيفجر غيظه في زوجته.. المسكينة!.

واضطرت الزوجة أن تشتغل، لتعيش، فذهبت في باديء الأمر إلى من تعرفهم، واشتغلت عندهم..كانت تطحن لهم القمح، في مقابل أن تحصل على مقدار من الأرز تطعم به الأسرة.. وهذاكل ماكانت تحصل عليه من طعام، مدى فترة طويلة.. فلما وجدت أن هذا لا يكفي ولا يقيم الأود، أضطرت أن تعرض خدمتها فيكل بيت، من غير تمييز بين بيوت من تعرفهم ومن لا تعرفهم..كانت تطلب العمل حيثما تجده.. وإذا تصادف أن عاد «نايدو» إلى البيت في غيبتها، فإن «جايارام» حينئذ يندب حظه، بلسان حاله.. حاله التي يرثى لها.. إنه يسأله: «أين أمك؟» يقولها وهو يركله بقدمه، ويخشى الصغير على أخيه الطفل أن يصاب بأذى من جراء هذا الاعتداء، فيحتضنه بين أضلاعهكما تحتضن الدجاجة أفراخها، ويعرض نفسه لركلات والده، وهو يئن من الألم.. والعذاب!..

وكان يحدث أن يفيق نايدو لنفسه فترات قصيرة متقطعة، ويحس بهول ما تجنيه يداه وقدماه، فيحتضن الصبي والطفل بين ذراعيه، ويبكي قائلاً: «لن أدخل حانوت الخمار مرة أخرى.. لن أذهب إليه»، ولكنه لا

يلبث، في الليلة ذاتها، وهو عائد من المحكمة بعدكتابة عرائض الشاكين، أن ينسكل شيء، ويفقد عقله أمام منظر الحانة، وتسوقه قدماه إلى الداخل وهو غائب عن وعيه،كمن تخدر بمخدر شديد!

كان «جايارام» يرى الصبية وهم يذهبون زرافات ووحدانا إلى المدرسة فتتوق نفسه إلى أن يصبح واحداً منهم ويقول لأمه:

– إن أخي الطفل قدكبر.. وها هو ذا يلعب بمفرده، دعيني أذهب لألتحق بالمدرسة..

وترد عليه الأم قائلة: «يا بني، كيف تستطيع الذهاب إلى المدرسة؟ ليس لديك قميص ترتديه، وملابسك كلها مليئة بالثقوب..كل واحد سيجعل منك هدفاً لسخريته، فيتحطم قلبك!..».

– اطمئني يا أماه. لقد وعدني جارنا «كتو» بقميص. ولن تخيطي إلا بعض أجزائه، فلن يكون ثمة مجال للسخرية مني. وحتى إذا حدث ذلك، فلن يعني شيئاً.. بحق السماء، دعيني أذهب يا أماه..

– ولكن يا صغيري، إني آسفة إذ أقول لك أنهم سيطالبونك بروبية في كل شهر، للمصروفات المدرسية.

– لا، لا.. إن المدرسة ذات الطلاء الأصفر، القريبة من السوق، لا تأخذ إلا ربع روبية.. فاسمحي لي بأن أذهب إلى هذه المدرسة.

واستعد «جاياراما» للمدرسة، وجمع المعلومات التي يريدها، وكان مما يلفت النظر أن يبدي الأطفال الفقراء ذكاء ومهارة أكثر من أولئك المنعمين، الذين يجري لهم كل شيء سهلاً رخاء، في بيوتهم العالية!..

وبعد أن واجهت الأم ووليدها المجتهد قدراً غير قليل من المصاعب والعقبات، حصلا على «طاقية» قديمة، أصلحت الأم من شأنها، وتركته ينطلق إلى المدرسة، في يوم سعيد.. ثم حدث ما حدث، مما قصصناه عليك..

***

قال الصبي «سندرام» وهو يجتاز بابهما: «لقد كلفني الأستاذ أن أعود ومعي جاريام إلى المدرسة».

فقالت الأم: «لا يا بني. ما نفع التعليم للفقراء؟».

– إن المدرس قد طلب مني أن أصحبه معي.. وهأنذا جئت لهذا الغرض.

ونظرت الأم إلى وليدها.

وقال الصبي: «لن أذهب يا أماه.. لا أريد أن أذهب إلى المدرسة».

فقال سندرام: «لا تخف يا جاياراما.. إن جميع الأولاد يطلبون عودتك، ولن يطلق أحد منهم لسانه أو نكاته عليك بعد الآن..».

وعاد الصبي يقول في إصرار: «لن أذهب.. لا أريد هذا العلم الذي تقدمه مدرستكم».

وقالت الأم: «عد يا بني من حيث أتيت.. فلن يذهب ابني معك. إذ لا يوجد أحد في البيت يلاحظ الطفل. إني أخرج كل يوم وأشتغل بطحن الفلفل الأحمر. ولابد لي من أن أدع الطفل في رعاية أخيه.. ما نفع العلم يا بني للفقراء وللكادحين الذين كتب عليهم الشقاء؟!».

وعاد الغلام بمفرده إلى المدرسة، مكتئباً..

وإذ عاد «صبانايدو» إلى البيت، افتتح قائمة شتائمه وصخبه بأن قال لابنه جاياراما: «من بعث بك إلى المدرسة؟ هل ذهبت إلى هناك لتجعل الأولاد يتندرون علي ويسخرون من؟!»

قال هذا وهو يركل الصبي بقدمه. ولم يحتمل المسكين ألم الضربة، فسقط على الأرض.

وقفزت الأم تعترض سبيل المعتدي. وهي تقول له في غضب النمرة التي تستثار في حماها: «لماذا تركل الصبي؟. إني أنا التي أرسلته إلى المدرسة..».

وأجاب نايدو تحديها بصفعة هائلة على خدها، دفعتها إلى الوراء دفعاً. فاستندت إلى الحائط، وقد دارت بها الدنيا. ولم يلبث أن عاجلها بضربة أخرى، طرحتها على الأرض. وبلغ «نايدو» ذروة غضبه وهياجه، فتناول في يده طاحونة الأرز الخشنة، وكانت قريبة منه، وصاح في وجه المرأة:

– قفي!

وتحاملت المرأة المعذبة. وهي تئن.. وجهدت أن تقف..

– هل أرسلته إلى المدرسة ليدعونيكل من رآه «بالسكير»؟!

قال هذه الكلمات مهدداً، بصوت خيل إليها معه أن جوانب البيت تهتز من تأثيرها، ثم رفع في يده خشبة الطاحونة.. الثقيلة.

وجرى الصبي نحوه ليقي أمه من أذى يوشك أن يقع وصرح قائلاً: «يا أبي. إن أمي لم ترسلني، بل ذهبت أنا بمحض رغبتي، وبرغم اعتراضها طريقي..».

ثم أسرع فأمسك بيدي والده بكل ما أوتي من جهد.

وصاح الأب:

– دع يدي..

وهو بالخشبة على جنب الصبي. فدار حول نفسه ثم سقط على الأرض. ولكنه ظل متشبثاً بوالده، يمسك فخذه بيده.وساقيه باليد الأخرى.

وعلا هدير الرجل مرة أخرى:

– ليحدث ما يحدث. لقد آليت أن أنهي كل شيء في الحال..

وركل الصبي. وقذف زوجته بالخشبة. ولكنها أخطأتها واصطدمت بالحائط.

وعلى صدى هذه الجلبة وهذه الأصوات، تجمعت النسوة المجاورات، وبقي الجيران الآخرون لاعتيادهم على صخب «نايدو» السكير.. ورأى الرجل تقاطر النسوة. فأطلق بعض الشتائم، ثم غادر المكان.

وبقي الصبي في مكانه لا يتحرك. وصرخت الأم وهي ترجف قائلة:

– يا ولدي.. حمتك السماء. لقد قتلتك!.

وعاونها الحاضرون على حمل الابن إلى فراشه، وأتوا له بجرعة ماء.. وكان الطفل مبهور الأنفاس.. لقد تلقى ضربة في الصميم. ضربة قاتلة!.

وبكت الأم في لوعة. وتساءلت في يأس: «ليت شعري هل يعيش!».

وقال الناس ساخطين: «هذا الشيطان المريد! هل يكون يكون الضرب بمثل هذه القسوة؟! لماذا يرخصون بقيام الحانات، التي يفقد فيها الناس عقولهم؟!».

ولم يمض إلا نصف ساعة، وإذا يد الطفل وقدماه تعروهما برودة الموت!.

وصاحت الأم: «يا لي من تعسة! يا بني الغالي.. ماذا تجديك المدارس بعد الآن!».

وانطلقت روح الغلام المعذبة.. انطلقت كطائر يتحرر من قفصه. انطلقت لتلحق بأمها العظمى..

(ترجمها من اللغة التأميلية إلى الانجليزية: و. بايجارو وامي).

تعريف بالمؤلف

* شكرفارتي راجاجو بالاتشاري هو رئيس وزراء ولاية مدارس وأحد أعضاء المؤتمر الوطني المبرزين في الهند. مدى الثلاثين سنة الأخيرة ومن أصدق أصدقاء المهاتما غاندي منذ سنة ١٩١٠.

* ولد سنة ١٨٧٠ في هوسور بالقرب من مدراس، واشتغل زمناً بالمحاماة.

* انضم منذ سنة ١٩٢٠ إلى حركة العصيان المدني. ولما سجن المهاتما عهد إليه بكتابة افتتاحيات الجريدة التي كان يصدرها باسم «الهند الصغيرة» واختير في تلك السنة ذاتها سكرتيراً عاماً لحزب المؤتمر الوطني.

* توالت انتصاراته بعد ذلك إلى أن انتخب عضاً في الجمعية العامة لمقاطعة مدراس، عند إجراء الانتخابات العامة سنة ١٩٣٧ – وفي سنة ١٩٣٩ انتخب أول رئيس لحكومة مدراس. وفي سنة ١٩٤٨ تولى منصب الحاكم العام للهند.

إنني أحاول.. ولكن، إذا لم أقو على نسيانك، فسآتي يوماً ما، وتملك بعيداً، بعيداً...